القديس غريغوريوس بالاماس والهدوئيون*

بافلوس موكتاروذيس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

يُخصص الأحد الثاني من الصوم للقديس غريغوريوس بالاماس (القرن الرابع عشر)، وهو هدوئي من الجبل المقدس ومن ثمّ رئيس أساقفة تسالونيكي.

دافع القديس غريغوريوس بالاماس عن هدوئيي الجبل المقدس الذين تعرّضوا للسخرية والهجوم من الإنسان الذي عبّر عن روح الكنيسة الغربية، الراهب برلعام الذي من كالابريا في جنوب إيطاليا. عندما دافع القديس غريغوريوس عن هؤلاء الرهبان، أوضح الإيمان الأرثوذكسي بالله، والطريقة التي يمكننا من خلالها الاقتراب منه وماهية خلاص البشرية. إذا تمّ تغيير الإيمان، بأي طريقة، فإن حياتنا "في المسيح" تتغيّر ويُحبَط خلاص البشرية.

الغرب

من بين الذين غيّروا إيمان الكنيسة الحقيقي هي الكنيسة في الغرب. ما هو الفرق الأساسي بينها وبين العقيدة الأرثوذكسية؟ السمة الرئيسية للغرب هي العقل. مصدر إيمان الكنيسة الأرثوذكسية هو العلاقة بين الناس والله. أولاً الله ثم الناس. قال الرسل: "لقد بدا حسناً للروح القدس ولنا". تشير كلمة "لنا" إلى أن الرسل تبعوا الروح القدس. تحاول الكنيسة الأرثوذكسية الاقتراب من سر الله، واختبار حياة المسيح، بقدر ما يكون ذلك ممكناً للناس، اعتماداً على درجة علاقتهم مع الله، في ما يتعلق بالتطهير الداخلي ومقدار النعمة التي يتلقونها من الله. من جهته، يحاول الغرب الاقتراب من الله فكرياً من خلال العقل البشري ومعرفة الطبيعة. لكن سر الله "فوق العقل". فكيف يمكن أن يفهمه العقل؟

لقد ذمّ برلعام هدوئيي الجبل المقدس الذين، بهدف الاقتراب من الله، سعوا إلى تطهير نفوسهم بالصلاة غير المنقطعة، حتى تسكن نعمة الروح القدس الممجّدة في داخلهم، وتمكنوا من تحقيق كلام المسيح الذي أصبح تقليداً في الكنيسة الأرثوذكسية: "طوبى لأنقياء القلب، لأنهم سيعاينون الله" (متى ٥:٨). كان هذا التقليد غريباً عن الغرب وغير معروف هناك. لهذا السبب، في المناقشات التي أجراها مع القديس غريغوريوس بالاماس، ادّعى برلعام، الذي عبّر عن الروح الغربية، أنه كلما تقدم الناس في المعرفة والآداب والفلسفة، كلما عرفوا الله بشكل أفضل واقتربوا منه. إن جوهر الأمر في العقل وليس في "تنقية القلب" كما قال السيد المسيح. لم يوافق القديس غريغوريوس على هذا الرأي، لأن هذا الأمر، بغضّ النظر عن أي شيء آخر، يترك غير المتعلّمين والأميّين بلا أمل في الخلاص.

القديس غريغوريوس والهدوئيون

مَن كان الهدوئيون؟ إنهم أولئك الذين سعوا في حياتهم إلى "الهدوء"، وهو ليس مجرد تجنب الضجيج الخارجي، أي التلوث الضوضائي. من السهل أن تجد هذا الهدوء إذا غادرت العالم من حولك. ما يصعُب تحقيقه هو تحقيق الهدوء الداخلي بمجرد التخلص من الاضطرابات الداخلية التي خلقتها طريقة التفكير الدنيوية وملاءمتها، ومشاغل الحياة، والرغبة في الثروة ووفرة السلع، وأفكار الجسد التي "تولّد أبناء وبنات في القلب" (آفاغوريوس)، نار الإلحاح الحسي والميل العام نحو الخطيئة. كل هذا يخلق "ارتباكاً داخلياً" واضطراباً. عندما تغيب هذه، تأتي نعمة الروح القدس إلى القلب، مما يجعل الناس راضين ومسالمين.

لكي يأتي هذا الهدوء المنشود، المطلوب هو الجهاد ضد كل الأشياء التي تحتفظ بطبيعتها القديمة. يجب أن يصبحوا مسيحيين، جنود المسيح، "غير ماديين وخالين من الاهتمامات"، "بمنأى عن أي رغبة" ويجب أن يلقوا "كل همومهم على الرب". يجب أن تصبح حياتهم صلاةً بلا انقطاع، فيما المسيح ساكن في القلب الذي يحمل ثمار الهدوء الحقيقي. إن الناس الذين ينجحون في هذا الجهد يُسَمّون الهدوئيين. هذا هو حال الناس قبل السقوط، أي حالة الملكوت.

منذ القرون المسيحية الأولى، كان هناك هدوئيون ختموا بأسلوب حياتهم طبيعة الحياة الروحية لكل القرون اللاحقة. لقد تخلّوا عن المدن و "حضّروا الصحراء"، ليس للابتعاد عن العالم، بل لتكريس أنفسهم كلياً لله. لقد جلبوا مشاكل العالم إلى المذبح، وبصلواتهم غالباً ما وضعوا حداً للجفاف والزلازل والحروب والأوبئة والمرض وما إلى ذلك. على سبيل المثال، أنطونيوس الكبير كان "للمسكونة بصلواته مشدداً" بحسب ما ترنمه الكنيسة.

هؤلاء هم الذين ذمّهم برلعام وسخر منهم، لأنه لم يقتنِ خبرة النسك والصلاة التي لا تنقطع. قال عنه القديس غريغوريوس أنه "عقلن الله". أي أنه بالنسبة لبرلعام كان الله موضوعاً للعقل أو فكرة، في حين أن الهدوئيين "اختبروا الأمور الإلهية". بالنسبة لهم، كان الله شخصاً جاهدوا لربط أنفسهم به. بنسكهم و"تذوّق" الصليب "بذلوا الدم ليتلقّوا الروح". اعتبر برلعام أن الهدوئيين بطّالون. ولكن أيّ عمل في العالم الخارجي قد يرفع الناس إلى السماء ويجعلهم آلهة "بالنعمة"؟ ما من عمل. ومع ذلك، فإن "عدم النشاط" عند الهدوئيين فعل ذلك. لهذا يقول القديس غريغوريوس أنه "نشاط يفوق كل نشاط" لأنه "نشّط" التمجيد.

هذا "الخمول" (عدم النشاط) هو الصلاة المتواصلة "يا رب يسوع المسيح ارحمني". إن إيجازه ساعد العقل على التركيز في القلب والتشبث بالله. وبعد نزوله إلى القلب صار سلاحهم ضد الشيطان. صارت الصلاة مشبعة عندهم، حتى لو كانت أجسادهم مشغولة بشيء آخر. بما أن الصلاة توحدت مع حياتهم، أو بالأحرى كانت حياتهم بالفعل، فلم يمنعهم أي عمل جسدي عن الصلاة بلا انقطاع. في الفردوس، قبل السقوط، كانت الحياة علاقة مستمرة مع الله، والهدوئيون عادوا إلى هذه الحالة، بقدر استطاعتهم. لقد تمكنوا من معاينة النور غير المخلوق، الذي يقول القديس غريغوريوس أنه "أقنومي"، ما يعني أنه لم يكن مجرد سطوع محسوس، بل ضوء "في أقنوم"، "في شخص". وهذا الشخص هو الرب يسوع المسيح.

يلاحظ القديس غريغوريوس أنه "عندما تأتي الصلاة من عقل صافٍ (خالٍ من كل ما هو محسوس)، يخرج الذهن من الصلاة، ممتلئاً بالدفء، كما لو كان فيه نار (نار النعمة الإلهية)". ويتابع قوله بإنه يعتقد أن العَرَق الذي كان يقطر من وجه الرب أثناء صلاته المتألمة في الجثسمانية كان نتيجة دفء الصلاة الداخلي.

قال القديس غريغوريوس أن الهدوئيين وضعوا تطويبة الرب موضع التنفيذ: "طوبى لأنقياء القلب، لأنهم لله سيعاينون". وكما وعد الرب بأنه سوف "يسكن معهم ويسير بينهم" (٢ كورنثوس ٦:١٦). لقد وعد الذين يحبونه حقاً بأنه سيأتي مع أبيه ويقيمون في قلوبهم مسكناً.

لقد عاش الهدوئيون تقليد الكنيسة بأنّك إذا طهّرت نفسك من الأهواء، فإنك تقترب من الله وتتمجد وهذا التمجيد هو خلاصك. اليوم، عندما نتعب جميعاً من الضوضاء في داخلنا كما في الخارج، فإن رسالة القديس غريغوريوس بالاماس هي الأكثر ملاءمة. فلنعُد إلى أنفسنا، إلى التأمل والتركيز والبحث عن الله والعلاقة والشركة معه، فنشعر بالرضا الذي وعدنا به: "أمنحهم الراحة".

* (الأحد الثاني من الصوم)

Source: Pavlos Mouktaroudis, Διήρχετο διά των σπορίμων, vol. II, 1st edition, Metropolis of Lemessos 2008, pp. 380-4.